﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرّوم: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عَظَمَةُ الخالقِ في إبقاء النوعِ الإنسانيّ بالتّزاوج

لمّا بيّن اللّهُ في الآية السّابقة خَلْقَ الإنسان، ولم يكن مِن الأشياء الّتي تبقى وتدوم سِنينَ متطاوِلة، بيّن هنا ما يكون به بقاء الجِنس وهو التّزاوج والتّناسل، وبيّن ما يكون به بقاء هذا الزّواج من مودّةٍ ورحمةٍ، وأنّ جميع ذلك من آيات اللّه سبحانه وتعالى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَزْوَاجًا﴾: (زوج) أصلٌ يَدُلُّ على مُقارَنَةِ شيءٍ لِشيءٍ، مِن ذلكَ الزَّوْجُ زَوْجُ المَرأةِ، والمَرأةُ زَوْجُ بَعْلِها، وهو الفَصيحُ، قالَ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35][1]، فالزَّوجُ كُلُّ شَيءٍ ثانٍ مَعَ شَيءٍ آخَرَ، بَينَهُما تَقارُنٌ في حالٍ ما، وسُمّيَتِ الأُنثَى القَرينَةُ لِلرَّجُلِ بِنِكاحٍ زَوجًا؛ لِأنَّها اقتَرَنَت به وصَيَّرَتهُ ثانيًا، ويُسَمَّى الرَّجُلُ زَوجًا لها لِذلكَ بِلا فرْقٍ[2]، فالأزواج في الآية: جمع زوجٍ، بمعنى المرأة المقترنة بالرّجل بنكاحٍ، فالمقصود: (زوجات).

2) ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟﴾: (سكن) أصلٌ يدُلُّ على خِلافِ الاضطرابِ والحَرَكةِ[3]، فالسُّكونُ ضِدُّ الحركة، يُقالُ: سَكَنَ الشَّيءُ يَسكُنُ سُكونًا، إذا ذهبت حركتُه، وكلُّ ما هَدَأ فقد سَكَن، كالرّيح والحَرِّ والبَرْد ونحوِ ذلك، وسَكَنَ الرَّجل: سكَت[4]، والسَّكن: سُكّانُ الدّار،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (زوج).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زوج)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 428.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (جعل)، والسّيوطيّ، الإتقان: 2/ 225.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سكن).

وهو الدّار أيْضًا، والسَّكَن كذلك: صاحبُك الَّذي تسكُن إليه؛ فلانٌ سَكَني، أي: الَّذي أسكن إليه[1]، والسُّكون الاطمئنانُ والتَّأنُّسُ، والسَّكينة: الطَّمأنينة والاستقرار والرَّزانة والوقار[2]، وأمّا السُّكون في الآية فمُستعارٌ للتَّأنُّسِ وفَرَحِ النَّفْسِ؛ لِأنَّ في ذلكَ زوالَ اضطرابِ الوَحْشَة والكَمَد بالسُّكونِ، الَّذي هو زَوالُ اضطرابِ الجِسْم[3].

3) ﴿مَّوَدَّةً﴾: (ودد) أصلٌ يدُلُّ على محبَّةٍ، ودِدْتُهُ: أحببتُه، ووَدِدْتُ أنَّ ذاكَ كانَ، إذا تمنَّيتَه، وفي المحبَّةِ الوُدُّ، وفي التَّمنّي الوَدادَةُ؛ لأنَّ التَّمنّي هو تَشهّي حُصولِ ما تَوَدُّهُ[4]، والوُدُّ يُستعملُ كنايةً عنِ السَّعْيِ لحصولِ الشَّيءِ المَوْدودِ؛ لأنَّ الشَّيءَ المحبوبَ لا يمنعُ من تحصيلِهِ إلّا مانعٌ قاهرٌ فهو لازمٌ للوُدِّ[5]، والمرادُ بالمودَّة في الآية: المحبَّةُ.

4) ﴿وَرَحْمَةً﴾: (رحم) أصلٌ يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعطفِ والرَّأفةِ، يُقالُ من ذلك: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إذا رَقَّ له وتعطَّفَ عليه، والرَّحِمُ: علاقَةُ القرابةِ، ثمَّ سُمّيت رَحِمُ الأُنثى رَحِمًا من هذا، لأنَّ منها ما يكونُ ما يُرحَمُ ويُرَقُّ له من ولَدٍ[6]، والرَّحمَةُ: اسمُ مصدرٍ لصفةِ الرّاحِم وهي من صِفاتِ الإنسانِ، فهي رِقَّةٌ في النَّفْسِ تَبعثُ على سَوْقِ الخيرِ لمن تتعدَّى إليهِ[7]، والمراد بها في الآية: صفةٌ تبعثُ على حُسْنِ المُعاملةِ[8].

5) ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: (فكر) أصلٌ يَدُلُّ على تَرَدُّدِ القَلْبِ في الشَّيءِ، يُقالُ: تَفَكَّرَ إذا رَدَّدَ قَلْبَهُ مُعْتَبِرًا، ورَجُلٌ فِكّيرٌ: كَثيرُ الفِكْرِ[9]، والفِكْرَةُ: قوّةٌ مطرقة للعِلْم إلى المعلوم، والتَّفَكُّرُ: جوَلان تلك القوّةِ بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دونَ الحيوان، ولا يقال إلّا فيما يُمكن أن يحصل له صورةٌ في القلب[10]، والمقصود بالتَّفكُّر في الآية: تَكلُّفُ الفِكرةِ، وهو معالجَةُ الفِكْرِ ومُعاودةُ التَّدَبُّرِ في دلالَةِ الأدِلَّةِ على الحَقائقِ[11].

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (سكن).
(2) مجمع اللّغة العربيّة، المجمع الوسيط: 1/ 440.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 24.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ودَّ، ودد).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 301.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 72.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 72.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (فكر).
(10) الرّاغب، المفردات: (فكر).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 26.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بناء الأسرة آيةٌ عظيمة مِن آيات الله

ومِن آيات اللّه الدّالَّة على رحمته بكم أنَّه خَلَق لكم مِن أنفُسِكم أزواجًا لِتَحصُلَ المناسَبةُ والأُلْفةُ والاطمئنانُ بيْنَكم، وجعَلَ بيْنَكم - أيُّها الأزواجُ - مَحبَّةً عَظيمةً، ورَحمةً يَعطِفُ بها بَعضُكم على بعضٍ، إنَّ في هذا الخَلْقِ والجَعْلِ لَعَلاماتٍ ودلالاتٍ على قُدرةِ اللّهِ وحِكمتِه ورَحمتِه، وغيرِها، لِقَومٍ يُعمِلونَ فِكرَهم في ذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواو) في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

الاستدلال على الرّبوبيّة والوحدانيّة بخَلْق الزّوجيّة

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ بما قبلَه بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران؛ لجمع الآيات المتعلِّقة بالإنسان أصلًا وتناسلًا، ولِما فيها من عِظةٍ وتذكيرٍ بنظام النّاس العامّ، وهو نظامُ الازدواج وكينونة العائلة وأساس التّناسل، وهو نظامٌ عجيبٌ جعله اللّهُ مرتكِزًا في الجِبِلَّة البشريّة[2].

دلالةُ (مِن) في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

ذِكْرُ بعضِ الآيات الباهرة المتعلّقة بوجود الإنسان

دلَّ التّعبير بـ(مِن) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ على التّبعيض[3]، في سياق ذِكْر بعض آيات اللّه التي استدلّ بها على ألوهيّته ووحدانيّته، فهذه هي الآيةُ الثّانية مِن آياتٍ ستٍّ تنتهي عند قوله: ﴿إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: 25]، التي فيها ذِكرُ خَلْقِ الإنسان، وخَلق العالَم علويًّا وسُفليًّا[4]، وفائدةُ هذا الأسلوبِ أيضًا الإشعارُ بأنَّ ذلك آيةٌ خارِجةٌ مِن جنس الآيات، مستقلَّةٌ بشأنها، مقصودةٌ بذاتها[5].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 478، والواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 35، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 309.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 70.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 333.

(4) الصّاوي، الحاشية على الجلالين: 3/ 203.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 31.

دلالةُ التّعبير بـ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، وجمعها:

كـثرةُ الأدلّـة الـواضـحـة والـبـراهـين السّاطعةِ الدّالّةِ على الوحدانيّة

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ دون غيرها كـ (دلائل)؛ وذلك لوجود فرْقٍ بينهما مِن ناحية العموم والخصوص، فالآياتُ أعَمُّ مِن الدَّلائل، وذلك لأنَّها تُطلَقُ على الآية القرآنيّة، وعلى الشّيء العجيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50]، فالمُراد بها هنا: الأدلّة الواضحة، والبراهين السّاطعة، الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى وقدرته[1]، وتتميَّز (الآيات) بكونها علاماتٍ ظاهرةً تكون سببًا لإدراك أمرٍ آخَرَ، لا يتمّ إدراكُه إلّا بوجودها، في حين أنّ الدّلائل تُفيد الظّنّ، وقد تكون واضحةً وقد لا تكون[2]، والسِّرُّ في جمعها دون الإفراد: الدّلالةُ على كثرة آيات الله سبحانه، الدّالّةِ على وحدانيّته، والمذكورُ في هذا السّياق بعضُها فقط.

دلالة الإضافة في ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

تعـظـيـمُ قَـدْرِ الآيات وتشريفُ منزلتِها

أُضيفت الآياتُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ إلى الضَّمير العائد على الله ﷻ باعتباره مصدرَها سبحانه وتعالى، والنّكْتَةُ في هذه الإضافة تعظيمُ قَدْر هذه الآيات وتشريفُ منزلتِها، فإنّ إضافة الأعيان إلى الله تشريفٌ لها، كبيت الله، وناقة الله، وغيرهما[3].

نُكْتَةُ تقديمِ شِبه الجملة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

الاهتمامُ بآيات الـلـه سبحانه والتّنويهُ بشأنها

تَقَدَّمَ الجارُّ والمجرور ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ للاهتمام بآيات الله سبحانه والتّنويه بشأنها، وذلك لأنّ السّياق القرآنيَّ هو في الاستدلال على وحدانيّة اللهِ ﷻ وقدرته على البعث.

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 75.
(2) الرّاغب، المفردات: (أي)، والعسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 97.
(3) ابن أبي العزّ، شرح الطّحاويّة، ص: 129.

دلالة التّعبير بالمصدر المؤوّل ﴿أَنْ خَلَقَ﴾:

خَلْقُ اللهِ الزّوجيَّةَ للأُنس والسَّكن

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالمصدر المؤوّل ﴿أَنْ خَلَقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ دون المصدر الصّريح (خَلْقُ)؛ للدّلالة على زمن الفعل، فإنّ المصدر قد يكون فيما مضى وفيما هو آتٍ، وليس في صيغته ما يدلّ عليه، فجيء بلفظ الفعل المشتقّ منه مع ﴿أَنْ﴾ ليجتمعَ الإخبارُ عن الحَدَث مع الدّلالة على الزّمان، مع إفادة الامتنان على الإنسان بخَلْق زوجٍ له من جِنْسه ليُؤْنِسَه.

دلالةُ التّعبير بفعل الخَلْق ماضيًا:

قِدَمُ خَلْقِ الزّوجيَّةِ للإنسان

أوثرَ استعمالُ الزّمنِ الماضي في الفعل ﴿خَلَقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، والنّكْتَةُ في ذلك: أنّه لمّا كان إيجادُ الأنثى من الذّكر أمرًا خاصًّا، ولم يكن إلّا مرّةً واحدةً كالخلق من التّراب، عُبّر بالماضي[1]، ويفيد هذا الزّمنُ الدّلالةَ على قِدَم خَلْقِ الزّوجيَّة، فقد كان مع خَلْقِ آدمَ وحوّاءَ عليهما السلام.

دلالة الخطاب في قوله: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾:

تذكيرُ النّاس بسُنَن الله ﷻ السّائرةِ في الخَلْق

تَوجَّهَ الخِطابُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ إلى جميع نوع الإنسان، الذّكور والإناث، باعتبار أنّ خَلْق الأزواجِ ذكورًا وإناثًا سُنَّةٌ مِن سُنن الله ﷻ في خلقه أجمعين مسلمِهم وكافرِهم[2].

دلالةُ التّعبير بـ(اللّام) في ﴿لَكُم﴾:

الامتنان بخَلْق الزّوجِ لأجل نفع الإنسان

دلّ حرفُ اللّام مِن ﴿لَكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ على اختصاص الإنسان بالزّوجيَّة المَبنيَّة على المودَّة والرَّحمة، دونَ غيره مِن المخلوقات، وقد أُدمج

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 66.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 71.

في هذه الآية الامتنانُ بخَلْقِ الزَّوج لأجل نفع الإنسان مِن الأُنس واستمرارِ نَسْله وبقائه في هذا الكون[1].

دلالة ﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾:

خَلقَ من أبيكم آدمَ حواءَ، ومِن جِنْسِكم بناتِ حواءَ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بـ﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ دون غيرها، فإمّا أن تكون بمعنى التّبعيض، وتكون (الأنفس) بمعناها الحقيقيّ، أي: (خلق لأبيكم آدمَ من نفْسِه زوجةً ليسكن إليها)، وذلك أنّه خَلَق حواءَ مِن ضِلْعٍ مِن أضلاع آدمَ، فحُمِل ذلك على جميع النّساء من حيثُ إنّ أمَّهم مخلوقةٌ مِن نَفْس آدمَ، أي: مِن ذات شَخْصِه، والنّساءُ بعدَها خُلِقنَ مِن أصلاب الرّجال[2]، وإمّا أن تكون ابتدائيّةً، والأنفسُ مجازًا عن الجنس، أي: (خلق لكم مِن جِنسكم لا مِن جنسٍ آخر)، وهو الأوفقُ بقوله تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ أي: لتميلوا إليها[3]، وفي التّعبير بقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ دلالةٌ على أنّ الذّكَرَ والأنثى يعودان في أصل خِلْقَتِهما إلى النّفس الواحدة، فلا ينبغي التّعالي أو الاستكبار مِن طَرَفٍ على طرفٍ؛ لأنَّ الجميع مِن آدمَ عليه السلام.

بلاغةُ المجاز في قوله: ﴿أَنفُسِكُمْ﴾:

الجنسيَّةُ سببٌ للتّقارب، والاختلافُ سببٌ للتّنافر

يرى بعضُ العلماء أنّ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ مجازًا بالنّفس عن الجنس، فإنّ الجنسيَّة علّةٌ للضّمّ، والاختلافُ سببٌ للتّنافر، ونظيرُه قَوْله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التّوبة: 128]، وقَوْله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164][4]؛ وذلك لأنَّ الاتِّفاق في الجِنس يدلُّ على تقارب الطِّباع، ممّا يُيَسِّر أمْرَ الحياة الزّوجيَّة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 71.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 478.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 333، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 31.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 119.

ويُؤَكِّد هذا أنّ إرسال الرُّسل جاء مِن جنس البشر؛ ليأخذوا منهم القدوةَ، وليسهُلَ التَّعامل معهم، بخلاف ما لو جاءت الرُّسل مِن جِنسٍ آخَرَ.

لطيفةُ جَمْعِ (الأنفس):

اقتضاء الجمع القسمة إلى آحاد

جاء لفظُ (الأنفس) جمعًا في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ باعتبار جماعة المخاطَبين، وإشارةً إلى النّسل الكثير المنحدر من آدمَ وحوّاءَ، وحملًا لبني آدمَ على أبيهم آدم، ولبنات حوّاءَ على أُمّهنّ حوّاء؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النّساء: 1]، فيكون من مقابلة الجمع بالجمع الموجب لانقسام الآحاد إلى الآحاد[1].

دلالةُ تقديمِ ﴿لَكُم﴾ و﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ على المفعول:

الاهتمامُ بالإنسان، وإبقاءُ نوعِه بالتّوالد

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُم﴾ على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾؛ للدَّلالة على الامتنان على نوع الإنسان، بمعنى: (خَلَقَ ذلك لأجلكم؛ ليبقى نوعُكم بالتّوالُد)، وفي تقديم الجارّ والمجرور ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ دلالةٌ على حُرمة التّزوّج من غير النّوع[2].

دلالةُ التّعبير بالزّوجيّة في ﴿أَزْوَاجًا﴾:

الزّوجيَّة اقترانٌ ناجِعٌ بين الذّكور والإناث

عَبّرَ القرآنُ الكريمُ بِلَفظ ﴿أَزْوَاجًا﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾؛ لدلالته على الاقتران، فالمادّة اللّغويَّة دالّةٌ على مقارنة شيءٍ لشيءٍ، ومِن ذلك الرّجلُ: زوجُ المرأة، والمرأةُ زوجُ بعلِها، فالزّوجُ: كلُّ شيءٍ ثانٍ مع شيءٍ آخر، بينهما تقارنٌ في حالٍ ما، ففي التّعبير بالزّوجيَّة إشارةٌ إلى اقتران الذّكر بالأنثى، مع

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 119، والقنوجيّ، فتح البيان: 5/ 258.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 66.

كمال الاستقرار بالإنجاب والمودَّة والرَّحمة، ففي الآية بيانُ النّموذج الكامل للأسرة المستقرّة، وذلك بإيجاد الاقتران المشتمل على السّكن والمودّة والإنجاب.

دلالةُ الجمع مع التّنكير في ﴿أَزْوَاجًا﴾:

كـثرة الأزواج المخلوقة من نفس واحدة

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ ﴿أَزْوَاجًا﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ بالجمع والتّنكير؛ للدَّلالة على كثرتها وتعظيمها، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النّساء: 1]، فالمُنعِم بهذه النِّعمة العظيمة مستحقٌّ للحمد والطّاعة.

دلالة (اللّام) في قوله: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟﴾:

الغرض من الزّواج سكونُ كِلا الزَّوجَين إلى الآخر

دلَّ حرفُ اللّام في قوله تعالى: ﴿أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ على العِلَّة المقصودة مِن الزّوجيَّة، وهي السّكون، وهذا ظاهرٌ في أسلوب هذه الآية، حيثُ عُلّل خَلْقُ الأزواج بالسّكون إليها، وهو الإلف، فمتى كان الزّوجان مِن جنسٍ واحد، كان بينهما تآلفٌ، بخلاف ما لو كانا مِن جنسين مختلفين، فإنَّه يكون بينهما التّنافر، وهذه الحكمة في بعث الرُّسل من جِنس بني آدم[1].

بلاغةُ الاستعارة في ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟﴾:

استعارة السّكن لـلأنـس وفـرح النّفس

تضمّن قولُه تعالى: ﴿أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ استعارةً بديعةً في الفعل ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟﴾، فالسّكون هنا مُستعارٌ للأُنس وفَرَح النّفس؛ لأنّ في ذلك زوالَ اضطرابِ الوحشة والكمد بالسّكون، الّذي هو زوال اضطراب الجسم، كما قالوا: (اطمأنَّ إلى كذا، وانقطع إلى كذا)، وأوّل ارتفاقِ الرّجل بالمرأة سكونُه إليها[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 382.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 17، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 72.

دلالة المضارعة في الفعل ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ﴾:

استمرارُ الأُنس باستمرار العِشرة الزّوجيّة

جاء الفعل ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على الدّوام والاستمرار، فسكونُ الزّوجين إلى بعضهما دائمٌ مستمرٌّ باستمرار العِشرة الزّوجيَّة، ولا يستغني أحدُ الزّوجين عن زوجه لتجدّد الحاجة إليه والأنس به في كلّ وقت، وفي هذا التَّعبير دعوةٌ إلى تجديد السّكن النّفسيِّ بين الزّوجين، واستحضار ثمارِه مع متغيِّرات الحياة ونوائبها.

نُكْتَةُ تقييد ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ﴾ بـ﴿إِلَيْهَا﴾:

السّكونُ القلبيُّ قبلَ السّكونِ الجسمانيّ

أوثِرَ التّعبيرُ في تقييد (السّكون) بـ﴿إِلَيْهَا﴾ دون (عندها) في قوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾؛ للدّلالة على انتهاء الغاية المناسبة للاطمئنان النّفسيّ، فيقال: (سكن إليه) للسّكون القلبيّ، ويقال: (سكن عنده) للسّكون الجسمانيّ، فكلمة (عند) لظرف المكان وهو للأجسام، و(إلى) للغاية وهي للقلوب[1]، أو لأنّه مِن باب التّضمين، فيكون الفعلُ (تسكنوا) قد ضُمِّنَ معنى الفعل (تميلوا)، فعُدّيَ بحرف (إلى)، وإن كان حقُّه أن يُعَلَّقَ بـ(عند) ونحوها منَ الظّروف؛ دلالةً على معنى كلمتين: السّكون والميل، فكلٌّ مِن الزّوجين يسكُن ويميل قلبُه إلى زوجه، بما أودعَ اللّهُ فيهما منَ المودّة والرّحمة[2].

دلالةُ التّعبير بـ(الواو) في ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً﴾:

تتميمُ المِنّة بجَعْل المودّة والرّحمة

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بما قبلَه بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران؛ تتميمًا للفضل والامتنان، فعَطَفَ اللّهُ سبحانه على نِعمة خَلْقِ الأزواج نعمةً أخرى، وهي جَعْلُ المودّةِ والرّحمة بينهما، فالسّكن لا ينتظم إلّا بدوام الأُلفة.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 91.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 687.

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿وَجَعَلَ﴾:

تصييرُ المودّة والرّحمة بين الزّوجين لتحقيق الأُلفة

أوثِرَ التّعبير بالفعل ﴿وَجَعَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ دون غيره؛ لأنَّه لفظٌ عامٌّ في الأفعال كُلِّها، وهو أعمُّ مِن (فَعَل) و(صَنَع) وسائر أخواتها، ويتصرّف على خمسة أوجُهٍ حسب السّياق الّذي يرد فيه[1]، وهو في هذه الآية بمعنى التّصيير، فقد صيّر اللّهُ الكريمُ بمنّه بين الأزواج بسبب الخَلْقِ على هذه الصِّفة مودّةً ورحمةً[2]، وفي التّعبيرِ بـ﴿وَجَعَلَ﴾ إشارةٌ إلى الحُبِّ الشّرعيِّ دون الميل الفِطريِّ بين الجِنسَين، فلا وجْهَ للصَّداقة والمخالطة قبل الزّواج بزَعْمِ تَعَرُّفِ كُلٍّ على الآخر، لأنَّ الذي يُحوِّل القلوبَ بين الرّجل والمرأة ويؤلِّف بينهما هو اللّه سبحانه وتعالى، بدليل التّعبير بالجعل.

نُكْتَةُ صَوغِ الفعل ﴿وَجَعَلَ﴾ ماضيًا:

تحقّقُ المودّةِ والرّحمة بين الزّوجين

جاء الفعل ﴿وَجَعَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بصيغة الماضي لتحقّق المودّة والرّحمة بين الزّوجين، كما يفيد أيضًا الدّلالةَ على قِدم هذا الجَعْل، فقد كان منذ خَلْق الأزواج بخلْقِ آدمَ وحوّاء عليهما السلام، وما صيّر بينهما من أُلْفَةٍ، فالأصلُ في الحياة الزّوجيَّة أن تُبنى على المودَّة والرَّحمة، فهُما لا ينفكّان عنها، وعلى الزَّوجَين أخْذُ الأسباب لتحقيق ذلك بدفع العوارض التي تُعَكِّرُ صَفْوَ المَوَدَّة والرّحمة.

نُكْتَةُ التّقييد بالظّرف ﴿بَيْنَكُم﴾:

تغليبُ جنسِ الرّجال على النّساء في الأحكام

ورد تقييدُ (جَعْلِ المودّة والرّحمة) بالظّرف ﴿بَيْنَكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ والمراد: (بين الأزواج)، وذلك إمّا على تغليب الرّجال على النّساء في الخطاب، أو على حذف ظرفٍ معطوفٍ على الظّرف المذكور، أي: (جعل بينكم وبينهنّ) كما في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: 285]، فالمرادُ بالمَوَدَّة

(1) الراغب، المفردات: (جعل).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 67.

والرّحمة ما كان منهما بعصمة الزّواج قطعًا، أي: (جَعَل بينكم بالزّواج الّذي شرعه لكم توادًّا وتراحُمًا، مِن غير أن يكون بينكم سابقةُ معرفةٍ ولا رابطةٍ مصحِّحَةٍ للتّعاطف مِن قرابةٍ أو رَحِمٍ)[1].

نُكْتَةُ تقديم الظّرف ﴿بَيْنَكُم﴾:

جَعْلُ المودّة والرّحمة بالزّواج دون غيره

تقدّم الظّرفِ ﴿بَيْنَكُم﴾ على المفعول ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ لإفادة الاختصاص، فقد حصر اللّهُ سبحانه جَعْلَ المودّة والرّحمة في ما كان بالزّواج المشروع بين الرّجال والنّساء دون غيره من العلاقات المحرّمة القائمة على أساس قضاء الشّهوات، والمفضية إلى كثيرٍ مِن المفاسد والآفات.

دلالة التّعبير بـ(المودّة والرّحمة):

دعوةُ الشّرعِ إلى بناء الزّوجيّة على المودّة والرّحمة

عُبِّرَ بلفظَي المودّة والرّحمة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾؛ لأنَّهما الأساسُ في بناء الزّوجيَّة، فمعنى المودّةِ: المحبّةُ، ومعنى الرّحمةِ: الشَّفَقَةُ، فالزَّوجانِ يكونان قَبْلَ التّزاوُج متجاهلَين، فيُصبِحان بعد التَّزاوج مُتحابَّين، ويكونان قبلَ التّزاوج لا عاطفةَ بينهما، فيصبحان بعد التّزاوج متراحِمَين كرَحمة الأُبوَّة والأُمومة، يعطف بها الزَّوجُ على زوجه[2].

سرُّ التّعبير بالمودَّة دون الحبّ:

المودّةُ حُبٌّ وعملٌ

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالمَودَّة دون الحُبِّ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ ليُفرِّق بين الحُبِّ الفِطريّ الذي يكون بين الذَّكر والأنثى، والذي هو مجرّد ميلٍ طبيعيٍّ فِطريٍّ، وبين الحُبِّ الشّرعيِّ الذي يكون مبنيًّا على الزّواج، والذي يتطلّبُ جهدًا وعَملًا، في التّعاطف والتّفاهم والحنان والشّفقة والتّضحيّات؛ ولم ترد في القرآن الكريم مفردة (الحبّ) بين الجنسين الذّكر والأنثى إلّا في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 31، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 71، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 102.

قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: 30] في وصف مُيولٍ مُحرَّمٍ خارجَ نطاق ما شرعه الله.

نُكْتَةُ تنكير لفظ ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾:

عِظم المودّة والرّحمة بين الزّوجين

جاء التّعبير بلفظ ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ نَكِرَتَين في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، والنّكْتَةُ في ذلك التّعظيم، بمعنى أنّ الله سبحانه يجعل في كلٍّ مِن الزّوجين مودّةً ورحمةً عظيمتين اتّجاهَ الطَّرَف الآخَر بمُجرَّد الزّواج، وهذا من آياته العظيمة في تصريف قلوب البشر، بعد أن لم تكن بينَهم سابقةُ معرفةٍ، ولا لقاءٍ، ولا سببٌ يوجِب التّعاطُفَ مِن قرابةٍ أو رحمٍ.

الكناية في لفظ ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾:

المودّةُ كنايةٌ عَن النّكاح والرّحمةُ كنايةٌ عن الولد

قال بعضُ العلماء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بأنّ (المودّة) كنايةٌ عن النّكاح - أي: الجماع - للزومها له، و(الرّحمة) كنايةٌ عن الولد، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: 21]، وقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ [مريم: 2][1].

نُكْتَةُ تقديمِ (المودّة) على (الرّحمة):

المودّة أصلُ البناء، والرّحمة من لوازمه

تقدّمتِ المودّةُ على الرّحمة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، لأنّ مودّة الرّجلِ لزوجه تكون في فترة شبابها، فإذا كَبِرت وعَجَزت رَحِمها، وقال بعضهم: بأنّه حين تتأصّل المودّةُ بين الزّوجين تتولّد بينهما الرّحمة، وقيل أيضًا: إنّ المودّة للكبير والرّحمة للصّغير[2]، وقيل أيضًا: إنّ المودّة هي الأصلُ في بناء الحياة الزّوجيَّة مع كمال مقوِّماتها مِن الصِّحَّة والغنى والجمال، لكنّ الحياة لا تدوم على ذلك، ففي حال طروِّ المتغيِّرات مِن مرضٍ وفقرٍ وغيرهما، تكون الرَّحمةُ عنوانًا لهذه الأسرة؛ لتُضمّد آلامَها، وتجبرَ كسرَها.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 225، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 32.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 382.

عِلّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ عن صدر الآية على سبيل الاستئناف البيانيّ؛ لأنّه خرج مخرج التّذييل لِما سبق، وفائدةُ التّذييل غالبًا توكيدُ المُذيَّل، وإبرازُ حُكمِه في صورةٍ كُلّيّة[1]، فأكّد اللّهُ سبحانه أنّ ما ذَكَره مِن خَلقِ أزواجِهم مِن أنفسهم وإلقاءِ المودّة والرّحمة بينهم، مشتملٌ على آياتٍ عظيمةٍ على قُدرة الخالق ﷻ وحِكمته.

توكيد المعنى السّابق وإبرازُ حكمه في صورةٍ كُلّيّةٍ

فائدةُ تتابعِ المؤكّدات في الآية:

تتابع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ عِدَّةُ مؤكّداتٍ مِن التّأكيد بـ(إنَّ)، والجملة الاسميّة، وتقديمُ ما حقُّه التّأخيرُ، ولامُ التّأكيد، وكلُّها من مؤكّدات مضمون جملةِ الإسناد، وقد جاء الخبر على الضّرب الإنكاريِّ، مبالغةً في التّأكيد على عَظَمة ما ذُكر من الآيات الجليلة.

المبالغة في التّأكيد على عظَمة ما ذُكر من الآيات الجليلة

دلالةُ التّعبير بالظّرفيّة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

استُعمل حرفُ الجرّ ﴿فِي﴾ الدّالّ على الظّرفيّة في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنّ معجزة الزّوجيّة قدِ اشتملت على آياتٍ عظيمةٍ، ودلائلَ باهرةٍ على عَظَمة اللّه سبحانه، ووحدانيّته في ربوبيّته وألوهيّته، وأنّ معانيَ العظَمة أحاطت بها في الظّاهر والباطن إحاطةَ الظّرف بالمظروف.

اشتمالُ الآياتِ على دلائل القدرة القاهرة

بلاغة الإشارة باسم ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أُشير في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إلى ما تقدّم ذِكرُه مِن خَلقِ الأزواج على الحال المذكور وما يتبعه من المنافع باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾، وما فيه من معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببُعد منزلته، فهي آياتٌ عظيمةٌ لا يُكتَنَهُ كُنْهُها، ولا يُقادَرُ قَدْرُها[2].

استعارة البُعد المكانيّ للبُعد المعنويّ في المنزلة

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 07/ 56.

نُكْتَةُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

الاهتمام بأدلّة الوحدانيّة الواضحة وبراهينِ القدرة السّاطعة

تقدّم الجارُّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم ﴿إِنَّ﴾ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لِنُكتَة الاهتمام بما سبق ذِكْره في الآية الكريمة، مِن أدلّةٍ واضحةٍ وبراهينَ ساطعةٍ دالّةٍ على وحدانيّة الخالق وعظيم قدرته.

دلالة التّعبير بـ(اللّام) في قوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾:

زحلقةُ اللّامِ كراهةَ اجتماع مؤكّدين في محلّ واحد

اتّصل حرفُ اللّام في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بلفظ (آيات)، وهي لامُ الابتداء، وغرضُها التّوكيد، والأصل أن تَقَع قبل ﴿إِنَّ﴾، لكن كَرِهَ العرب أن يجتمع مؤكّدان في محلٍّ واحدٍ - كما يقول النّحويّون - فزحلقوا اللّام عن موضعها.

دلالةُ جمع ﴿لَآيَاتٍ﴾:

شمولُ الآية القرآنيّة على عدّة آياتٍ كونيّة

جُمِع لفظُ ﴿لَآيَاتٍ﴾ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ مع أنّ المشار إليه واحدٌ؛ للدّلالة على أنّها آيةٌ عظيمةٌ تنطوي على عدّة آياتٍ، منها: أنّه سبحانه جعل للإنسان ناموسَ التّناسل، وجعل تناسلَه بالتّزاوج، ولم يجعله كتناسل النّبات مِن نفسه، وجعل أزواجَ الإنسان من صنفه ولم يجعلها مِن صنفٍ آخر، وجَعَل في ذلك التّزاوج أُنسًا بين الزّوجين، وجَعَل بَين كُلِّ زوجين مودّةً ومحبّةً، فالزّوجان يكونان من قَبْل التّزاوج متجاهلَين، فيصبحان بعد التّزاوج متحابَّين متراحِمَين، فلأجل ما ينطوي عليه هذا الدّليلُ مِن النِّعَم والدّلائل جُعِلت هذه الآيةُ آياتٍ عدّة[1].

دلالةُ تنكير ﴿لَآيَاتٍ﴾:

آياتُ اللهِ عظيمةٌ في نفسها، كثيرةٌ في عددها

جاء لفظُ ﴿لَآيَاتٍ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ للدّلالة على العظَمة في نفسها، والكَثْرة في عددها، فهي آياتٌ عظيمةٌ، ودلائلُ باهرةٌ على عظمة الله سبحانه، وقدرته

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 71، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 102.

على البعث والنّشور، وهي آياتٌ كثيرةٌ باعتبار اشتمال ذلك الخلق على دقائقَ كثيرةٍ متولّدٍ بعضُها عن بعض، يُظهرها التّأمّلُ والتّدبّرُ، بحيثُ يتجمّع منها آياتٌ كثيرةٌ[1].

دلالةُ (اللّام) في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

تعليلُ انتفاعِ القوم المُتفكّرين بالآيات

ورد التّعبيرُ بحرف اللّام مِن لفظ ﴿لِّقَوْمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لتعدُّدِ معانيها؛ فمنها: أنّها للتّعليل، أي: لأجل قومٍ يتفكّرون، وهي اللّام المبيِّنةُ سببَ الفعل الذي قبلَها، فهي بمعنى (كي) أو (لأجل)، ولهذا سمّيت (لام الأجْلِ)[2]، ويجوز أن يكون معناها شِبهَ التّمليك، فهي واسطةٌ بين معنى التّمليك ومعنى التّعليل، ومثّلَ له ابنُ هشامٍ في المغني بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النّحل: 72]، وذكر في المعنى العشرين من معاني اللّام أنّ ابن مالك في (كافيته) سمّاها لام التّعدية[3].

دلالة التّعبير بـ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

رسـوخ الفِكر المتجدِّد من مقوّمات حياة المؤمن السّعيد

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إجراءُ صفة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ على (قومٍ) للإيماء إلى أنّ الفِكرَ متمكِّنٌ منهم حتّى كأنّه من مقوّمات قوميَّتهم، وأنّه صار من خصائصهم، بخلاف ما لو قيل: (من المتفكّرين)[4].

نُكْتَة تنكير لفظ ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

تفخيم وتشريف أهلِ التّفكّر

أفاد تنكيرُ لفظ ﴿لِّقَوْمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ التّفخيمَ والتّشريفَ المناسبَ لسياق مدح أهلِ التّفكّر في آيات الله، والاعتبارَ بما فيها من دلائلَ واضحةٍ، وبراهينَ ساطعةٍ دالّةٍ على وحدانيّة الخالقِ وعظيم قدرته.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 32، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 71، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 102.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 144.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 72.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 297.

دلالةُ التّعبير بصفة التّفكُّر:

التّفكّر في الآيات سبيلُ الاهتداء بها واستجلاءِ كُنهها

عُبّر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بالفعل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ وذلك لأنّ التّفكّر والنّظر في تلك الدّلائل هو الذي يُجلّي كُنهها، ويزيدُ النّاظر بصارةً بمنافع أُخرى في ضمنها، قال ابن عطيّة: "وخَصّ المُتفكّرين بالذِّكر؛ تشريفًا للمنزلة، وليقعَ التّسابقُ إلى هذه الرّتبة"[1]، فهم الّذين يقتدرون على الاستدلال، لكون التّفكّر مادَّةً له يتحصّل عنه، وأمّا الغافلون عن التّفكّر فما هم إلّا كالأنعام[2]، وفيه تعريضٌ بأنَّ الذين لم ينتفعوا بهذه الآيات ليس لديهم مَسْحَة فكر.

دلالة المضارع في الفعل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

تجديدُ النّظر في الآيات للكشف عن مزيدٍ من الهدايات

جاء الفعل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على التّجدّد والاستمرار، فقد ذكر سبحانه آياتٍ عظيمةً تهدي إلى الرّشد وإلى الاعتبار، لِقَوْمٍ يجدّدون النّظر والتّفكّر في مظاهر قدرة الله تعالى ورحمته بخلقه، ويتأمّلون في صنع الله وفعله، فيعلمون ما في ذلك مِن الحِكم والمصالح.

نُكْتَةُ حذفِ متعلّق الفعل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

تشريف فعل التّفكّر في حدّ ذاته دونَ نظرٍ إلى أفراده

حُذف متعلّقُ الفعل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لنُكْتَة التّركيزِ على وجود فعل التّفكّر في حدّ ذاته؛ لكونه المقصود من الكلام دونَ التّعرّض لأفراده، فالغرضُ العامُّ من ذِكْر الفعل مجرّد الاقتصار على إثبات معنى الفعل؛ لإفادة الوجود المجرّد في الشّيء دون التّعرّض للمعمول[3]، ومعلوم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 115.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 71، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 102، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 76.

(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.

أنّه إذا كان الكلام منصبًّا إلى غرض من الأغراض جُعِل سياقُه له، وتوجُّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوض مُطَّرَح[1].

بلاغة التّذييل بجملة الفاصلة:

تقرير مضمون المعنى السّابق باستجلاء الهدايات من الآية

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على سبيل التّذييل لما سبق، وهو مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، مع التّنبيه على أنّ ما ذُكر ليس بآيةٍ مفردةٍ، بل هي مشتملةٌ على آياتٍ شتّى، وأنّها تحتاج إلى تفكّرٍ كما تُؤذِن بذلك الفاصلة، وذكرَ الطّيبيّ أنّه لمّا كان القصد من خَلْقِ الأزواج والسّكون إليها وإلقاء المحبَّة بين الزّوجين ليس مجرَّدَ قضاءِ الشّهوة التي يشترك بها البهائمُ، بل تكثيرُ النَّسلِ وبقاءُ نوعِ المتفكّرين الّذين يؤدّيهم الفِكرُ إلى المعرفة والعبادة الّتي ما خُلِقت السّماواتُ والأرض إلّا لها، ناسب كونُ المتفكّرين فاصلةً هنا؛ لأنّهم أهلُ التّمييز بين الأمور والفحص عن حقائق ما يعرض من الشُّبَهِ في الصّدور[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّفس والرّوح:

الـرّوح من أمر الله والنّفس من عالَم الخَلْق

الرّوح بضمّ الرّاء في كلام العرب: النّفخ، سُمّي روحًا لأنّه ريحٌ يخرج من الرّوح، لذا اقترن النّفخ مع الرّوح في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91]، والرّوح: جوهرٌ لطيفٌ حاملٌ قوّةَ الحياة والحِسّ والحركة الإراديّة، وجُعِلت الرّوح من أمر الله في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: 85]، وقولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشّورى: 52]، تُعجِز العقولُ عن إدراك كُنهه؛ أمّا النَّفْسُ فقد جُعِلت من عالَم الخَلق، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/ 151، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 240، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 32.

نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النّساء: 1]، والآيات في هذا عديدة، ولمّا كانت الرّوح من عالَم الأمر فهي أشرف من النّفْس، لذا نُسبت إليه سبحانه تشريفًا لها وتعظيمًا، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: 29][1]، وممّا يُذكر في الفَرْق بينهما أنّ النّفْس هي ما يجمَع بين الرّوح والبدن، فأوثِر في نظم الآية لفظ (النّفْس) لمناسبته سياق الزّواج وعلاقته بالجسد.

السّكن والمنزل:

المنزل من النّزول، والسّكن من السُّكون واطمئنانِ النّفس

يظهر الفرقُ بين (السّكن) و(المنزل) في ملمح اشتقاق كلٍّ لفظ، فالسَّكَن مأخوذٌ من السّكون، وهو ضدُّ الحركَةِ والاضْطِراب[2]؛ فهو دالٌّ على الاستقرار[3]، والسُّكون مجازٌ في الاطمئنانِ والتَّأنُّسِ[4]، ويُقال أيضًا: سكَنَ بالمكانِ: أقامَ فيهِ[5]، ولا تسمّى دارًا إلّا إذا سُكن فيها[6]، أمّا (المنزل) فهو مشتقّ من النّزول بمعنى الهبوط، لأنّ أصحابه ينزلون به بعد مسيرٍ أو رحيلٍ ليلًا أو نهارًا، ومكانٌ نُزُل: يُنزَل فيه كثيرًا، ووجدتُ القومَ على نُزُلاتهم، أي: منازلهم، والنُّزُل: ما يُهيّأ للنّزيل[7]، فأوثِرَ في نظم الآية لفظ (السّكن)؛ لكونه مستعارًا للتَّأنُّسِ وفَرحِ النَّفْسِ وزوالِ الوحشة بالزّوج.

المودّة والمحبّة:

الودّ ميلُ الطّباع والحبّ ميلُ الطّباع والحكمة

يظهر الفرقُ بين (المودّة) و(المحبّة) في المعنى الدّلاليِّ لِكُلٍّ لفظ، فالمودّة من الوُدّ، والمحبّة من الحُبّ، والحبُّ يكون فيما يوجبه ميلُ الطّباع والحِكمة جميعًا، والودُّ يكون مِن جهة ميل الطّباع فقط،

(1) الدّوري، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 137.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سكن).
(4) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المجمع الوسيط: 1/ 440.
(5) ابن سِيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سكن).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (دور).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزل).

ألا ترى أنّ القائل يقول: أُحِبّ فلانًا وأوَدّه، ويقول: أُحِبُّ الصّلاة، ولا يقول: أوَدُّ الصّلاة، ويقول: أودُّ أنّ ذاك كان لي إذا تمنّى وداده[1]، فأوثِرَ في نظم الآية لفظُ (المودّة) لمناسبة ميلِ الطّباع بينَ الزّوجين.

الرّحمة والرّأفة:

الرّحمة من باب التّزكية، والرّأفةُ من باب التّخليَة

بين لفظَي (الرّحمة) و(الرّأفة) عمومٌ وخصوصٌ مُطلقٌ، فالرّأفةُ خاصّةٌ في دفع المكروه عن المرحوم، بينما الرّحمةُ تشمل هذا المعنى وغيره، قال ابن عاشور: "والرّأفة: رِقّةٌ تَنشأُ عند حدوث ضُرٍّ بالمرؤوف به، يقال: رؤوفٌ رحيمٌ، والرّحمة رِقّة تقتضي الإحسانَ للمرحوم، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلق"[2]، وقال القفّال: "الفرق بين الرّأفة والرّحمة أنّ الرّأفة مبالغة في رحمةٍ خاصّةٍ، وهي دفعُ المكروهِ، وإزالةُ الضَّرر، كقوله: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النّور: 2] أي: لا ترأفوا بهما فترفعوا الجَلد عنهما، وأمّا الرّحمة فإنّها اسمٌ جامعٌ يدخل فيه ذلك المعنى، ويدخل فيه الإنعام"[3].

والرّأفة أشدُّ مِن الرّحمة، فالرّحمة من باب التّزكية، والرّأفة من باب التّخليَة، والرّأفة مبالغةٌ في رحمة مخصوصة هي رفع المكروه وإزالة الضّرّ، فذِكْرُ الرّحمة بعدَها في القرآن مُطَّرِدٌ لتكون أعمَّ وأشمل[4]، فأوثِرَ في نظم الآية لفظُ (الرّحمة) لعموم المعنى، واقتضائه الإحسانَ للزّوج.

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 174.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 239.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/ 93.
(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 246، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 742.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»